ثمرة العلم العمل

تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البدر، عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد
ثمرة العلم والعمل. / عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد البدر. – المدينة المنورة، ١٤٣١هـ
٤٨ ص، ١٢ × ١٧سم

ردمك: ٠- ٦٤٢٥ – ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- الإسلام والعمل ٢- الإسلام والعلم أ- العنوان

ديوي ٢١٤،٥ ١٤٣١/٢٢٥٤

رقم الإيداع: ١٤٣١/٢٢٥٤
ردمك: ٠ - ٦٤٢٥ - ٠٠- ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلَّى الله وسلَّم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أمَّا بعد:

فلا تخفى مكانة العلم ومنزلته العليَّة في ديننا الحنيف، ومنزلته العظيمة، فهو أساسٌ به يُبدأ، ولا يُمكن أن تُقام الشَّريعة، وأن تُحقَّق العبوديَّة الَّتي خُلق العبد لأجلها وأُوجد لتحقيقها إلَّا بالعلم.

فهو أساسٌ لابدَّ منه، وبه يُبدأ، وهو المقدَّم، كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ**

﴿لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ ـ جلَّ شأنه ـ بالعلم.

وكان من دعاء نبيِّنا ﷺ الَّذي يُواظب عليه كلَّ يوم إذا أصبح بعد صلاة الصُّبح، كما جاء في «مسند الإمام أحمد» و«سنن ابن ماجه» وغيرهما؛ من حديث أمِّ سلمة رضي الله عنها قالت: كان ﷺ يقول كلَّ يوم بعد صلاة الصُّبح بعد أن يسلِّم: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا**»، وفي رواية «**وَعَمَلًا صَالِحًا**»[(١)].

فقدَّم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في دعائه اليومي العلمَ النَّافع على الرِّزق الطَّيب والعملِ المتقبَّل، وذلك

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٤)، وابن ماجه (٩٢٥) وفي سنده مبهم، لكن له شاهد من حديث أبي الدَّرداء عند الطَّبراني في «الدُّعاء» (٦٧٠)، ولذلك حسَّنه الحافظ ابن حجر في «نتائج الأفكار» (٢/ ٣١٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

أنَّ العبد لا يستطيع أن يَمِيز بين رزقٍ طيِّب وخبيث، ولا بين عمل صالح وطالح إلَّا بالعلم النَّافع.

فالعلم النَّافعُ ضياءٌ لصاحبه، ونورٌ له، يهتدي به، قال الله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالعلم نورٌ، وضياءٌ لصاحبه، ومَثَل العالم في الأمَّة مَثَل أُناس في ظُلمة، وبينهم شخصٌ بيده مصباحٌ، يضيء لهم بمصباحه الطَّريق، فيسلَمُون منَ العِثار، ويتَّقون الشَّوك والأخطار، ويسيرون في جادَّة سويَّة وصراط مستقيم.

ولهذا تكاثرت النُّصوص والدَّلائل في كتاب الله ـ جلَّ وعلا ـ وسنَّة نبيِّه ﷺ في بيان فضل العلم، وشرف قَدْرِه، وعظيم مكانته، والثَّناء على أهله، وبيان منزلتهم العليَّة.

ويكفي أهلَ العلم شرفًا ونُبلًا أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قرن شهادتهم بشهادته في أعظم مشهود به، وهو توحيده: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

ويقول الله ـ جلَّ وعلا ـ في شرف وفضل أهل العلم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ [الزمر: ٩]، ويقول ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾ [فاطر: ٢٨]، ويقول الله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١١]، قيل في معنى الآية: أي يرفع الله العَالِمَ المؤمن على المؤمن غير العالم، غير الفقيه درجاتٍ، ورفعةُ الدَّرجات تدلُّ على عِظم الفَضْل وعلوِّ المكانة.

وجاء في الحديث ـ حديث أبي الدَّرداء في «المسند» وغيره في بيان فضل العلم ومكانة أهله ـ قول نبيِّنا ـ

عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في حديثه العظيم الجامع: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَان فِي المَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ؛ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[(١)].

روى الطبراني في «الأوسط»[(٢)] بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه مرَّ بسوق المدينة فوقف عليها، فقال: «يا أهل السُّوق! ما أعجزكم؟ قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟!

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود (٣٦٤١)، والتِّرمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبَّان (٨٨)، وقال الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (١/ ١٧): «حسن لغيره».
(٢) برقم (١٤٢٩)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب» رقم (٨٣).

قال: ذاك ميراث رسول الله يقسم وأنتم ها هنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟! قالوا: وأين هو؟! قال: في المسجد، فخرجوا سراعًا إلى المسجد، ووقف أبو هريرة لهم حتَّى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟! قالوا: يا أبا هريرة! فقد أتينا المسجد فدخلنا، فلم نَرَ فيه شيئًا يُقسم! فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم في المسجد أحدًا؟! قالوا: بلى رأينا قومًا يصلُّون، وقومًا يقرأون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام! فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراث محمَّدٍ».

هذا هو مراد النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، وبميراث النَّبيِّين، فإنَّ الأنبياء لم يورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا وإنَّما ورَّثوا العلم، فكلَّما عَظُمَ حظُّ العبد ونصيبُه من العلم عَظُمَ حظُّه من ميراث النُّبوَّة.

وجاء في حديث معاوية في «الصَّحيحين» أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[1]، قال: «**خيرًا**» جاء بها منكَّرة تفخيمًا وتشريفًا، وتعليَةً للثِّمار والآثار الَّتي يجنيها من يتفقَّه في دين الله؛ ولهذا دخول المسلم في سبيل طلب العلم وطريق تحصيله، هذا من علامات وأمارات إرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ الخيرَ به.

قال ابن القيِّم: «وهذا إذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل، وأمَّا إن أريد به مجرَّد العلم؛ فلا يدلُّ على أنَّ من فقه في الدِّين فقد أُريد به خيرًا».

بمعنى أن يتفقَّه ويعمل، ويكون مقصوده بتفقُّهه رفع الجهل عن نفسه، وتحقيق العبوديَّة لله ـ سبحانه وتعالى ـ على بصيرة، وعلى نور من الله ـ تبارك وتعالى ـ، فإذا كان بهذه الصِّفة كان مُوجِبًا لحصول الخير.

(١) أخرجه البخاري (٧١، ٣١١٦، ٧٣١٢)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه.

قال: «وأمَّا إن أُريد به مجرَّد العلم؛ فلا يدلُّ على أنَّ من فقه في الدِّين فقد أريد به خيرًا، فإنَّ الفقه حينئذ يكون شرطًا لإرادة الخير وعلى الأوَّل يكون موجبًا»(١).

والعلمُ مقصودٌ للعمل، ويُطلب للعمل ولتحقيق العبوديَّة لله ـ سبحانه وتعالى ـ، ولهذا كان مقدَّمًا على العمل، يُبدأ به؛ ليكون العمل والعبادة والطَّاعة والتَّقرُّب لله ـ سبحانه وتعالى ـ على بصيرة، على علمٍ نافع، على أساسٍ صحيح، مستمدٍّ من كتاب الله، وسنَّة نبيِّه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

ولهذا ألَّف الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ رسالةً قيِّمة بعنوان: «اقتضاء العلم العمل»؛ حَوَتْ جملةً من النُّصوص والآثار العظيمة في هذا الباب العظيم.

«اقتضاءُ العلم العمل» بمعنى أنَّ العلم مقصودُه العمل، وتحقيق العبوديَّة لله، والقيام بها على بصيرة؛ فإذا

(١) «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ٦٥).

كان لدى العبد عِلْمٌ بلا عمل، لَمْ يحقِّق العبوديَّة، وإذا كان عنده عملٌ بلا علمٍ ـ أيضًا ـ لم يحقِّق العبوديَّة.

فلا تتحقَّق العبوديَّة لله ـ سبحانه وتعالى ـ إلَّا بالأمرين: بالعلم النَّافع، والعمل الصَّالح، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣].

«الهدى»: هو العلم النَّافع، و«دين الحقِّ»: هو العمل الصَّالح المقرِّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

فهذا الَّذي بُعث به نبيُّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، وبُعث به جميعُ النَّبيِّين.

ومن أَجْلِ الوقوف على الشَّواهد والدَّلائل على اقتضاءِ العلمِ العملَ، وأنَّ مقصودَ العلمِ العمل؛ أَذْكُرُ في هذا الباب نقاطًا عديدة تَجْلِيَةً لهذا الأمر، وجمعًا لما تيسَّر من شواهده ودلائله.

فأقول:

الأمر الأول:

العلمُ والعملُ مقصودُ الخَلْقِ

أنَّ اقتضاء العلم العمل واضحٌ من حيث أنَّ كِلَا الأمرين مقصودُ الخلق، فالله عَزَّوَجَلَّ خلقَ الخلقَ ليعرفوه، وخلقَهم ـ جلَّ وعلا ـ ليعبدوه.

دلَّ على الأوَّل: قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ في آخر آية من سورة الطَّلاق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]، قال: ﴿خَلَقَ... لِتَعْلَمُوٓا۟﴾، فالعلم مقصودُ الخلقِ.

ودلَّ على الثَّاني: قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ في أواخر الذَّاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالعلم والعبادة كلٌّ منهما مقصودُ الخلق، والعبادةُ لا تكون إلَّا بالعلم النَّافع المقرِّب إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

فمن عَلِمَ وعَمِلَ فهو الَّذي حقَّق مقصودَ الخَلْقِ، ولهذا قال أهل العلم: التَّوحيد الَّذي خُلقنا لأجله وأُوجدنا لتحقيقه له جانبان: جانبٌ علميٌّ، وجانب عمليٌّ، توحيدٌ في المعرفة والإثبات، وتوحيدٌ في الإرادة والطَّلب، فلابدَّ مِنَ الأمرين لتتحقَّق العبوديَّة، وليكون العبدُ مِنْ عباد الله حقًّا، المطيعين له ـ سبحانه وتعالى ـ صِدقًا.

ومَنْ كان ذا عِلْمٍ بلا عمل، فهو مغضوبٌ عليه، يبوء بغضب الله؛ لأنَّه لم يحقِّق مقصودَ العلم، ومن كان صاحبَ عملٍ وجدٍّ واجتهادٍ في العبادة بلا علم؛ فهو ضالٌّ عن سبيل الله وصراطه المستقيم.

ولهذا شُرع لنا أن نقرأ في سورة الفاتحة تلك الدَّعوة العظيمة الَّتي هي أهمُّ الدَّعوات وأعظمها: ﴿ ٱهْدِنَا

ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧]، فالمُنْعَمُ عَليهم هم أهلُ العلم والعمل، والمغضوبُ عليهم هم أهل العلم بلا عمل، والضَّالُّون هم أهل العمل بلا علم؛ ولهذا قال سفيان بن عُيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فسد من علمائنا ففيه شَبَهٌ من اليهود، ومن فسد من عبَّادنا ففيه شَبَهٌ من النَّصارى»؛ لأنَّ اليهود عندهم عِلْمٌ لا يعملون به، كما قال الله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ﴾ [الجمعة: ٥]، ﴿لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾: لم يعملوا بها، حفظوها وفهموا ما دلَّت عليه، ولكنَّهم لم يعمَلوا بها.

ومَنْ فسد من عبَّادنا ففيه شبه من النَّصارى؛ لأنَّ النَّصارى أهل بدع وإحداث وعبادات ما أنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها من سلطان، ولم يشرعها ـ جلَّ وعلا ـ لعباده، ولم يأذن ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده بها.

◙ الأمر الثاني:

العبدُ مسؤول عن علْمه ماذا عمل به؟

أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر بأنَّ النَّاس يوم القيامة يُسألون عن العلم الَّذي حصَّلوه؛ ماذا عملوا به؟ كما جاء في حديث أبي بَرْزَةَ الأسْلَمي رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ ـ وذكر منها عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: عَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ**»[1].

ولهذا جاء عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه أنَّه قال: «إنَّما أخشى يوم القيامة أن يُنَادِيني ربِّي على رؤوس الخلائق؛ فيقول: يا عُوَيْمِر! ماذا عملت فيما علمت؟».

وهذا خَطْبٌ جسيم، وهَوْلٌ عظيم، ومقام خطير، فكلُّ عِلْمٍ حصَّله العبدُ يُسْأَل عنه يوم القيامة: ماذا عملت فيما علمت؟

(١) أخرجه التِّرمذي (٢٤١٧)، وقال: «حسن صحيح».

لأنَّ مقصودَ العلمِ العملُ، ولهذا يُسأل كلُّ إنسان عن علمه الَّذي تعلَّمه.

جاء عن غير واحدٍ من السَّلف أنَّه قال: «ليتني أَنْجُو من علمي ـ يقصد من العلم الَّذي تعلَّمه ـ كَفَافًا؛ لا لي، ولا عليَّ»، وهذا محمول على شدَّة ورع السَّلف ـ رحمهم الله ـ وشدَّة خوفهم مع صلاح عِلْمهم وعَمَلِهم، كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ المؤمن جَمَعَ بين إحسانٍ ومخافةٍ، والمنافق جَمَعَ بين إساءة وأمل»، فهو محمول على هذا، كقول عبد الله ابن أبي مُلَيْكَة رَحِمَهُ اللهُ: «أدركتُ أكثرَ من ثلاثين صحابيًّا كلُّهم يخاف النِّفاق على نفسه»[1].

فَجَمَعَ اللهُ لهم بين مقامين عظيمين: مقام الإحسان في العمل والإجادة في الطَّاعة، وفي الوقت نفسه: الخوف من الله

(١) علَّقه البخاريُّ في «صحيحه»: باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر (١/ ١١٠ ـ مع «الفتح»).

ـ سبحانه وتعالى ـ ألَّا تُتقبَّل منهم أعمالهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله عن هذه الآية فقلتُ: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ! وَلَكِنَّهُمُ الذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَخَافُونَ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ»(١).

وقال اللهُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ١٢٧]، قرأ وُهيب ابن الورد رحمه الله هذه الآية وبكى، قال: «يا خليل الرَّحمن! ترفع قوائم بيت الرَّحمن وأنت مشفِقٌ أن لا يقبل منك!»(٢).

---

(١) رواه التِّرمذي برقم (٣١٧٥).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٢٣٣)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤/ ط. الشعب).

الأمر الثالث:

وعيد وتهديد لمن لا يعمل بعلمه

أنَّ القرآنَ والسُّنَّةَ جاء فيهما تهديدٌ ووعيدٌ لمن لا يعمل بالعلم الَّذي تعلَّمه، يتعلَّم ويتفقَّه، وربَّما ـ أيضًا ـ يدعُو إلى هذا العلم، ولا يعمل به!! قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ عن نبيِّه شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ [هود: ٨٨]، فهذه ثلاث آيات في القرآن العظيم في هذا الباب.

وقد جاء في الحديث ـ حديث أسامة رضي الله عنه في «الصَّحيحين»[1] وغيرهما ـ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**يُجَاءُ بِرَجُلٍ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقَ أَقْتَابُهُ ـ أي تخرُج أمعاؤه ـ وَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَأْتِيهِ أَهْلُ النَّارِ وَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانٌ! مَا شَأْنُكَ، أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟! قَالَ: بَلَى؛ كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ**».

وجاء في «مسند الإمام أحمد»[2] من حديث أنس رضي الله عنه: «**أَنَّ النَّبِيَّ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ رَأَى لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ قَوْمًا تُقَرَّضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟! قَالُوا: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ؛ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ**».

---

(١) البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩) عن أسامة بن زيد.
(٢) (٣/ ١٢٠)، وصحَّحه الشَّيخ الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٢٩١).

فالكتاب والسُّنَّة جاء فيهما وعيدٌ لمن لا يعمل بعلمه، ومن يدعو ولا يعمل، ويكون حظُّ النَّاس من علمه أكثر من حظِّه هو مِنْ علمه، مثله كمثل الفَتيلة التي في السِّراج، تضيء للنَّاس الطَّريق وتحرق نفسها؛ ولهذا كان مطرِّف ابن عبد الله بن الشّخير ـ أحد كبار التَّابعين الثِّقات العبَّاد ـ يستعيذ بالله من ذلك، فيقول في دعائه: «اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك أن يكون أحدٌ أَسْعَد بما علَّمتني منِّي، وأعوذ بك أن أكون عبرةً لغيري»[1].

وهو دعاءٌ عظيمٌ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وهو من أحسن الدُّعاء»[2].

(١) رواه الإمام أحمد في «الزُّهد»: رقم (١٣٥٨).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٠٧).

الأمر الرابع:

العمل سبب لدخول الجنَّة

أنَّ دلائل الشَّرع جاء فيها أنَّ الأعمال المقرِّبة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذخيرة للعبد يوم القيامة، يفوز بسببها برضا الله ـ جلَّ وعلا ـ وجنَّته، ولهذا في القرآن ما يقرُب منَ الخمسين آية يُجمع فيها في مقام ذكر الثَّواب والأجر بين الإيمان والعمل، مع أنَّ العمل داخلٌ في مسمَّى الإيمان؛ لكن تَعْلِيَةً لمقام العمل، وبيانًا لعظيم شأنه، ورَفيع ذكره يُخصُّ بعد عموم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٨]، ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا

كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ [النحل: ٣٢]، والآيات في هذا المعنى عديدة، فالعملُ سببٌ لدخول الجنَّة.

وقول نبيِّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**»؛ أي على سبيل المُعَاوَضَة والمقابلة، وإلَّا فإنَّ العمل سببٌ من أسباب الجنَّة، ودخول الجنَّة برحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَال: «**لَا، وَلاَ أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»(١).

فليست الأعمال في مقامٍ يكون دخولُ العبد الجنَّة عِوَضًا أو مقابلًا لذلك، بل الأعمال سببٌ، وإلَّا فإنَّ دخول الجنَّة إنَّما هو برحمة الله وفضله.

بل الأعمال ذاتُها الَّتي يقوم بها العبد هي من رحمة الله به وفضله عليه: ﴿**وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ**﴾ [النور: ٢١].

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

الأمر الخامس:

مسارعة السَّلف رضي الله عنهم للعمل بالعلم

مما يبيِّن هذا المقام: حال السَّلف ـ رحمهم الله ـ العجيبة في المبادرة للأعمال والمسارعة إليها والمواظبة على فعلها، والإتيان بها فَوْرَ سماعِها من رسول الله ﷺ، وفورَ سماعهم لحديثه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ يُبادرون مبادرةً عجيبة، ويسارعون مسارعةً عظيمة للعمل بما يأمرهم به ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ويواظبون على ذلك.

وفي هذا المعنى؛ يُنقل عنهم نقولٌ كثيرة جدًّا تدلُّ على شدَّة عنايتهم وعظيم رعايتهم لهذا الأمر.

ومن ذلكم ما جاء في «الصَّحيحين»[1] وغيرهما من حديث عليٍّ رضي الله عنه، في قصَّة فاطمة رضي الله عنها بنت النَّبيِّ ﷺ، عندما جاءت النَّبيَّ ﷺ تطلب خادمًا، فقال لها ـ عليه

(١) «صحيح البخاري» (٥٣٦٢)، و«مسلم» (٢٧٢٧).

الصَّلاة والسَّلام ـ: «**أَوَلَا أَدُلُّكِ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكِ مِنْ خَادِمٍ: إِذَا أَوَيْتِ إِلَى الفِرَاشِ تُسَبِّحِينَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدِينَهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرِينَهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ**»، قال عليٌّ رضي الله عنه: «فما تركتها منذ سمعتُها من رسولِ الله ﷺ».

فاختارَ أحدُ الحاضرين ليلةً عصيبةً، قد يُذهل في مثلها الإنسان، قال: ولا ليلة صفِّين؟! ـ وهي اللَّيلة الَّتي دارت فيها الحرب المعروفة والمعركة المشهورة ـ قال: «ولا ليلةَ صفِّين».

وعَنْ دَاوُدَ بنِ أَبي هِنْدٍ، عن النُّعْمَانِ بنِ سالم، عن عَمْرو ابنِ أَوْس، قال: حدَّثنى عَنْبَسَةُ بن أبي سفيان في مَرَضِهِ الَّذي مَات فيه بحديثٍ يُتَسَارُّ إليْه، قال: سمعتُ أمَّ حبيبة تقولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ صَلَّى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بُنِيَ لَهُ بِهِنَّ بَيْتٌ فِي الجَنَّةِ**»، قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ: فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، وقَالَ عَنْبَسَةُ: فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ أُمِّ

حَبِيبَةَ، وقَالَ عَمْرُو ابنُ أَوْسٍ: مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عَنْبَسَةَ، وَقَالَ النُّعْمَانُ بنُ سَالِمٍ: مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عَمْرِو ابنِ أَوْسٍ، رواه مسلم[(١)].

فهذه همَّة عالية جدًّا في المسارعة والمواظبة معًا، في المسارعة إلى العمل، والمبادرة إلى القيام به، والمواظبة عليه.

وجاء في «صحيح البخاري»[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلاَثٍ لَا أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ: **صَوْمِ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلاَةِ الضُّحَى، ونَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ**».

ومثله تمامًا ما رواه مسلم في «صحيحه»[(٣)] من حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: «أوصاني حبيبي صلى الله عليه وسلم بثلاثٍ لن أدعَهُنَّ ما عشتُ»، وذكر هذه الثَّلاث.

---

(١) (٧٢٢).
(٢) (١١٧٨).
(٣) (٧٢٨).

ومثال آخر لأحد صغار الصَّحابة ـ وهو عُمر بن أبي سَلَمَة رضي الله عنه ـ قال: كنت غُلامًا في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصَّحْفَة، فقال لي: «**يا غُلام! سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**» متفق عليه[1]، زاد البخاري عنه رضي الله عنه أنَّه قال: «فما زالت تلك طِعمتي بعدُ»، يعني منذ أن كان غلامًا صغيرًا في حجر رسول الله ﷺ، فسمعه يقول هذه الكلمات قال: «فما زالت تلك طِعمتي بعدُ».

ونلاحظ كثيرًا ما يُزجَر الصِّغار ويُنهون ويُنبَّهون مرَّة وثانية وثالثة ولا يبادرون للإجابة، وهذا غلامٌ من صغار الصَّحابة من مرَّة واحدة قال: «فما زالت تلك طِعمتي بعدُ».

(١) البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

فهذا يدلُّ على المسارعة من جهة، والمواظبة على ذلك إلى الممات من جهة أخرى.

وإذا نظرنا في سير السَّلف الصَّالح بعد الصَّحابة يُنقل عنهم في هذا المعنى نقولٌ عظيمة جدًّا، مثل قول سفيان الثَّوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما بلغني حديثٌ عن رسول الله ﷺ إلَّا عملتُ به».

وقال عمرو بن قيس الملائي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا بلغَك الحديثُ عن رسول الله ﷺ فاعمل به ولو مرَّةً تَكُنْ من أهله».

وقوله: «فاعمل به ولو مرَّة» هذا في السُّنن والرَّغائب، أمَّا الواجبات والفرائض فلا يكفي ليكون من أهله أن يعمل به مرَّة.

ونقل ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ عن شيخه ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ لَمَّا ذكر ابن القيِّم حديث أبي أمامة عن النَّبيِّ ﷺ

أَنَّه قال: «**مَنْ قَرَأَ آيَةَ الكُرْسِي دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ**».

قال ابن القيِّم: «بلغني عن شيخ الإسلام ابن تيمية أَنَّه قال: ما تركتها عُقَيْبَ كلِّ صلاة»[1].

وجاء عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّه قال: «ما كتبت حديثًا ـ وقد كتب «المسند» ومعروف حجمه وكثرة الأحاديث الَّتي فيه ـ، قال: ما كتبت حديثًا إِلَّا عملتُ به، حتَّى إنَّني سمعتُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ احتجم وأعطى الحاجم دينارًا فاحتجمتُ وأعطيتُ الحاجم دينارًا».

فهذه طريقة السَّلف في حرصهم ومواظبتهم ودأبهم، وعظيم عنايتهم بالعلم مسارعةً إلى فعلِه، ومواظبةً عليه.

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ٢٨٥).

◘ الأمر السادس:

مسارعة ومبادرة السَّلف رضي الله عنهم إلى ترك المنهيَّات

في جانب المنهيَّات ـ أيضًا ـ كانوا أهل مسارعة ومواظبة ومبادرة عجيبة في هذا الباب.

ولهذا جاء في «الصَّحيحين»[1] عن عمر رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ عَنْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**»، وقد سمعَه النَّبيُّ ﷺ ـ كما جاء في بعض الرِّوايات ـ يحلف بأبيه، ونلاحظ هنا أنَّ هذا أمرًا اعتادوا عليه في جاهليَّتهم قبل الإسلام، اعتادوا على الحلف بالآباء ودَرَجَ اللِّسان على ذلك، يقول عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ عَنْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**»، قال عمر: «فَوَالله مَا حَلَفْتُ بِهَا مُنْذُ سَمِعْتُ النَّبيَّ ﷺ ذَاكِرًا،

(١) البخاري (٦٦٤٧)، ومسلم (١٦٤٦).

وَلَا آثِرًا»، يعني: لا من قولي، ولا ـ أيضًا ـ حاكيًا لقول غيري.

من الطَّرائف الَّتي تُنقل في هذا الباب، وهذا أذكره فقط للمقارنة، ولندرك ـ أيضًا ـ همَّة السَّلف وعظيم عنايتهم في هذا الباب، يُذكر أنَّ شخصًا سمع رجلًا يحلف بالنَّبيِّ فنصحه وأخذ يشرح له الأدلَّة حتَّى اقتنع وعَزَمَ على ألَّا يحلف، فمن باب التَّأكيد لمن يعظه قال له: والنَّبيِّ! لن أحلف بالنَّبيِّ بعد اليوم! نلاحظ هنا أنَّ اللِّسان إذا دَرَجَ على شيء من الصُّعوبة بمكان أن يَنْفَلِتَ منه الإنسان ويواظب دون أن يقع منه ولا مجرَّد فَلْتَةِ لسانٍ، فعُمر رضي الله عنه يحلف: «والله! ما حلفت بها بعد لا ذاكرًا، ولا آثرًا».

فهذا ممَّا يبيِّن لنا عظيم عناية السَّلف ورعايتهم للعلم، ما أن يسمع الحديثَ سواءً في باب الأمر أو في باب الزَّجر إلَّا

يواظب عليه مواظبةً عجيبةً حتَّى فيما أَلِفَتْهُ النَّفسُ واعتادت عليه.

ومن هذا الباب: ما جاء في حديث أنس في «الصَّحيحين»(١)، وقد كان ﵁ خادمًا عند أبي طَلْحة، وكان يومًا يسقيهم الخمر قبل التَّحريم، وبَيْنَ هو كذلك يسقيهم الخمر؛ إذ أتى آتٍ وقال: حُرِّمت الخمر، فأمروا فورًا بإراقتها مع تعلُّق النُّفوس واعتيادهم على ذلك، فأراقوها فورًا في نفس اللَّحظة، وكان ذلك آخرُ عهدهم بها.

كذلك ما جاء في «صحيح مسلم»(٢) عن ابن عبَّاس ﵄ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ رَأَى خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ، وَقَالَ: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ**»، فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ الله ﷺ: خُذْ خَاتَمَكَ انْتَفِعْ بِهِ ـ يعني: تبيعه، تتركه لأهلك،

(١) البخاري (٤٦١٧)، ومسلم (١٩٨٠).
(٢) (٢٠٩٠).

هذه وجوه مباحة ـ، قَالَ: لَا؛ وَاللهِ! لَا آخُذُهُ أَبَدًا؛ وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ».

زهدت نفسهَ في هذا المباح مِن شدَّة العناية والالتزام بما جاء عن النَّبيِّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

الأمر السابع:

العملُ سببٌ لثبات العلم ورسوخه

أنَّ العناية بالعمل سببٌ لثبات العلم ورسوخه وقوَّته، وإذا تُرك العمل ذهب العلم كما جاء عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه قال: «هتف بالعلم العمل؛ فإنْ أجابه وإلَّا ارْتحل»[1] يعني لا يبقى، فالعمل بالعلم سببٌ لثباته، ولهذا جاء عن الشَّعبيِّ رحمه الله أنَّه قال: «كنَّا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به»[2]، وجاء عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه أنَّه قال: «إنَّك لن تكون عالمًا حتَّى تكون متعلِّمًا، ولن تكون متعلِّمًا حتَّى تكون عاملًا بما تعلَّمتَ»[3].

وفي هذا المعنى العظيم يُنقل عن السَّلف ـ رحمهم الله ـ نصوصٌ كثيرة، وإذا نظر ـ أيضًا ـ المسلم إلى الواقع

(١) رواه ابن عساكر في «ذمِّ من لم يعمل بعلمه» (ص٣٨).
(٢) رواه ابن عبد البرِّ في «جامع بيان العلم» (١/ ٧٠٩).
(٣) رواه الخطيب في «الاقتضاء» (١٦، ١٧).

العملي في حياة السَّلف؛ يجد ذلك واضحًا جليًّا في سِيَرِهم العطرة وأخبارهم المباركة، رضي الله عنهم ورحمهم، وألحقنا جميعًا بالصَّالحين من عباده.

الأمر الثامن:

العمل بالعلم أبلغ في الدَّعوة

أنَّ العمل بالعلم أبلغ في الدَّعوة من القول بلا عمل، قد مرَّ معنا قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

جاء عن مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: «إنَّ العالِمِ إذا لم يعمل زلَّت موعظتُه عن القلوب كما يَزِلُّ القَطْر عن الصَّفا»[١].

وجاء عن المأمون أنَّه قال: «نحنُ إلى أن نوعَظَ بالأعمال أحوجُ من أن نوعَظَ بالأقوال»[٢].

لأنَّ الَّذي يعمل ويواظب؛ فعمله ومواظبته على العمل، هي بحدِّ ذاتها دعوة، ويكون بذلك للنَّاس أسوةً

(١) رواه الخطيب في «الاقتضاء» (٩٧).
(٢) «جامع بيان العلم» (١٢٣٦).

وقدوةً، ويكون فعلًا إمامًا، قال تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

لا يكون الإنسان بهذه المنزلة إمامًا إلَّا إذا اجتمعت فيه صفات الخير، بحيث يكون قدوة للنَّاس في صفات الخير، أمَّا أن يستكثر من العلوم ولا يكون من أهل العمل؛ فهذا كما أنَّه لم ينتفع، لا يُنتفعُ بعلمه.

وأَذكر من المواقف المؤثِّرة: أنَّني مرَّة زُرْتُ أحدَ المُسنِّين من العبَّاد في المسجد الَّذي يصلِّي فيه، وكان صاحبَ عبادةٍ، ويجلس في المسجد ـ انتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة ـ فسلَّمت عليه، وتحدَّثت معه، وقلت له: ما شاء الله في حيِّكم هذا مجموعة من طلبة العلم، قال: حيُّنا هذا! قلت: أيْ نَعَم، في حيِّكم، ما شاء الله مجموعة من طلبة العلم، قال: حيّنا هذا! ـ يُعِيدُهَا عليَّ، استفهام إنكاري! ـ قال: حيّنا هذا؟! قلت: نعم، قال: يا وَلَدِي!

الَّذي لا يحافظ على الصَّلاة مع الجماعة ما هو بطالب علم.

ولهذا ـ أحيانًا ـ بعض النَّاس قد يستكثر من العلوم والحفظ والمذاكرة؛ لكن تفقده خاصَّة في صلاة الفجر، تفقده كثيرًا، فإذا كانت هذه الفريضة العظيمة مضيَّعة والَّتي هي أعظم أركان الإسلام بعد الشَّهادتين، وأوَّل ما يُسأل عنه يوم القيامة، فأين أثر العلم؟! والصَّحابة ﭫ ـ كما جاء عن ابن عمر ـ: «كنَّا إذا فقَدنا الرَّجل في الفجر والعشاء أسأنا به الظَّنَّ»[1]، وفي الحديث: «إنَّ أثقل صلاة على المنافقين صلاةُ الفجر وصلاةُ العشاء» متَّفق عليه[2].

(١) رواه الطَّبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ٢٧١)، وابن خزيمة (١٤٠٥)، وابن حبَّان (٢٠٩٩).
(٢) رواه البخاري (٦٥٧)، ومسلم (٦٥١).

وفي زماننا هذا ـ زمن السَّهر باللَّيل ـ كثيرًا ما تُضيَّع صلاة الفجر، وكثيرًا ما يُفرَّط فيها، وربَّما يسهر اللَّيل في مناقشات علميَّة في بعض المسائل أو في بعض الموضوعات ثمَّ ينام عن صلاة الفجر، لو كان يَسهر باللَّيل على القرآن حفظًا له وقراءةً له، إذا كان على حساب صلاة الفجر؛ فإنَّ سهره محرَّم ولا يحلُّ له، ويَأثَم على ذلك السَّهر.

وأكثر صلاةٍ تُضيَّع في هذا الزَّمان هي أفضل الصَّلوات على الإطلاق، كما جاء في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ عند الله صَلَاةُ الصُّبْح يَوْمَ الجُمُعَةِ في جَمَاعَةٍ**» رواه أبو نعيم في «الحلية»، وصحَّح إسناده الألباني رَحِمَهُ اللهُ[1]، وصلاة الصُّبح يوم الجمعة في جماعة هي أكثر صلاة تُضيَّع الآن؟!

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ٢٠٧)، وانظر: «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٥٦٦).

وليُسْأل عن هذا أئمَّة المساجد؛ لأنَّ ليلة الجمعة ليلة إجازة، ليلة سهر، يسهر النَّاس إلى وقت متأخِّر، ثمَّ ينامون في وقت متأخِّر من اللَّيل، وينامون عن هذه الصَّلاة.

والجيِّد منهم يأتي لهذه الصَّلاة متأخِّرًا كسلانًا، يأتي متعبًا ورأسه مُثْقَل بالنَّوم، فلا يؤدِّي هذه الصَّلاة كما ينبغي.

وإذا كان يعلم من إمام مسجده أنَّه يقرأ في ذلك اليوم «السَّجدة»، و«هل أتى»؛ فإنَّه لا يأتي إذا كان يُواظب إلَّا في نهاية الرَّكعة الثَّانية.

أين ثمرةُ العلم إذا كان المقام والخَطْب يتعلَّق بفريضة هي أوَّل ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة؟! ومن ضيَّعها كان لما سواها أَضْيع.

◘ الأمر التاسع:

سؤالُ الله الإعانة على العمل بالعلم

وقد مرَّ معنا: أَنَّ النَّبيَّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ كان كلَّ يوم ـ كما تقدَّم من حديث أمِّ سلمة رضي الله عنها ـ يُواظب على الدُّعاء بـ: «**اللَّهمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ عِلمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا**».

وهذه الدَّعوة المباركة مناسبة غاية المناسبة في صَدْر اليوم وبدايته؛ لأنَّ اليوم هو ميدان الأعمال وأهداف المسلم في يومه هذه الأمور الثَّلاثة، لا رابع لها: علم نافع، وعمل متقبَّل، ورزق طيِّب، ولهذا من المناسب أن تبدأ يومك بعد أن تصلِّيَ الفجر بهذه الدَّعوة: «**اللَّهمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ عِلمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا**»، ثمَّ تنطلق في يومك، وقد استعنتَ بالله، وطلبتَ مدَّه وعونَه في طلب العلم، والاجتهاد في العمل، وتحصيل الرِّزق.

الأمر العاشر:

ذمُّ من لا يشتغل بالعمل

أنَّ السَّلف ـ رحمهم الله ـ وَرَدَ عنهم نقولٌ كثيرة جدًّا في ذمِّ مَنْ لا يشتغل بالعمل، ولا يعتني بالعمل، من ذلك: قول أبي هريرة رضي الله عنه: «مثلُ علْمٍ لا يُعمل به كمثل كنْزٍ لا يُنفق منه في سبيل الله عزوجل»(١).

وسُئل الإمام أحمد عن رجلٍ يكتب الأحاديث فيُكثر، قال: «ينبغي أن يُكثرَ العملَ به على قدر زيادته في الطَّلب»، ثمَّ قال: «سُبُل العلم مثل سبُل المال، إنَّ المال إذا ازداد ازدادت زكاتُه»(٢).

قال الخطيب: «كما لا تنفع الأموالُ إلَّا بإنفاقها، كذلك لا تنفع العلوم إلَّا لمن عمل بها، وراعى واجباتِها،

(١) رواه الخطيب في «الاقتضاء» (١٢)، قال الألبانيُّ: «إسناد موقوف لا بأس به».
(٢) نفسه (١٤٨).

فلينظر امرؤ لنفسه، وليغتنم وقته؛ فإنَّ الثواء (بمعنى المثوى) قليل، والرَّحيل قريب، والطَّريق مَخُوف، والاغترار غالب، والخطر عظيم، والنَّاقد بصير، والله تعالى بالمرصاد، وإليه المرجع والمعاد ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]»[١].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنزل القرآن ليعمل به؛ فاتَّخذ النَّاس تلاوته عملًا».

ذكره ابن الجوزي في «تلبيس إبليس»[٢]، وقال: «يعني أنَّهم اقتصروا على التِّلاوة، وتركوا العمل به».

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: «قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فما بَالُنَا ندعوا فلا

(١) نفسه (ص٢٠).
(٢) (ص١٣٧).

يستجاب لنا؟! فقال له إبراهيم: من أجل خمسة أشياء، قال: وما هي؟! قال: عرفتم الله فلم تؤدُّوا حقَّه، وقرأتم القرآن فلم تعمَلوا بما فيه، وقلتم: نحبُّ الرَّسول ﷺ وتركتم سنَّته، وقلتم: نلعنُ إبليسَ وأطعتموه، والخامسة: تركتم عيوبكم وأخذتم في عيوب النَّاس»[١].

وقال سفيان الثَّوري: «رحم الله أبا حازم[٢] قال: «رضي النَّاسُ اليومَ بالعلم وتركوا العملَ»[٣].

وقال مالك بن دينار: «إنَّ العبد إذا طلب العلم للعمل كسره علمُه، وإذا طلبه لغير ذلك ازداد به فجورًا أو فخرًا»[٤].

(١) «جامع بيان العلم» (١٢٢٠).
(٢) هو سلمة بن دينار الأعرج؛ من العبَّاد الثِّقات.
(٣) رواه الإمام أحمد في «العِلَل» (٢٦٥٩).
(٤) رواه الخطيب في «الاقتضاء» (٣١، ٣٢، ٣٣)، قال الألبانيُّ: «إسناد موقوف لا بأس به».

وقال عبد الله بن المعتزِّ: «علم بلا عمل كشجرة بلا ثَمرَة».

وقال أيضًا: «علم المنافق في قوله، وعلم المؤمن في عمله».

وقال معروف الكرخي: «إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا؛ فتح له باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبدٍ شرًّا؛ فتح له بابَ الجدل وأغلق عنه بابَ العمل».

وسمع الحسن قومًا يتجادلون، فقال: «هؤلاء قوم ملُّوا العبادة، وخفَّ عليهم القول، وقلَّ ورعهم فتكلَّموا»[1].

وقال بشر بن الحارث: «العلم حسن لمن عمل به، ومن لم يعمل ما أضرَّه».

وقال سفيان بن عيينة: «العلم إن لم ينفعك ضرَّك».

(١) «فضل علم السَّلف» (ص٣٧).

قال الخطيب: «يعني إن لم ينفعه بأن يعمل به، ضرَّه بكونه حُجَّةً عليه»[1].

ومن جميل ما يُنقل في هذا الباب: أنَّ سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ سُئِل: قيل له: طلب العلم أحبُّ إليك أو العمل؟ فقال: «إنَّما يُراد العلم للعمل، فلا تَدَع طلب العلم للعمل، ولا تدع العمل لطلب العلم»[2].

وأختم بوصيَّة عظيمة وبليغة، ونافعة ومؤثِّرة للخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «اقتضاء العلم العمل»[3] يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنِّي موصيك ـ يا طالبَ العلم ـ بإخلاص النِّيَّة في طلبه، وإجهاد النَّفس على العمل بموجَبه؛ فإنَّ العِلمَ شجرةٌ، والعَمَلَ ثمرةٌ، وليس يُعدُّ عالمـًا مَنْ لم يَكُن بعلْمِه عاملًا، فلا تَأْنَس بالعمل ما دُمْتَ

(١) وهذه الآثار كلُّها في «اقتضاء العلم العمل» للخطيب.
(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١٢).
(٣) (ص١٨).

مستوحشًا من العلم، ولا تَأْنَسْ بالعلم ما كنتَ مقصِّرًا في العمل، ولكن اجْمَع بينهما، وإن قلَّ نصيبُك منهما، وما شيءٌ أضعف مِنْ عالم تَرَكَ النَّاس عِلْمَه لفساد طريقتِه، وجاهلٌ أخذ النَّاسُ بجهله لنَظَرِهم إلى عبادته، والقليلُ مِنْ هذا مع القليل مِنْ هذَا أنجى في العاقبة، إذا تفضَّل الله بالرَّحمة، وتمَّم على عبدِه النِّعمة.

فأمَّا المدافعة والإهمال، وحبُّ الهُوَيْنَا والاسترسال، وإيثارُ الخفض والدَّعة، والميلُ مع الرَّاحة والسَّعة؛ فإنَّ خواتيم هذه الخصال ذميمةٌ، وعُقباها كريهةٌ وخيمةٌ، والعلم يُراد للعمل، كما العمل يُراد للنَّجاة، فإذا كان العمل قاصرًا عن العلم؛ كان العلم كَلًّا على العالِم، ونعوذ بالله من علم عاد كلًّا، وأورث ذلًّا، وصار في رقبة صاحبِه غلًّا»، انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.



وبهذا ينتهي الكلام حول هذا الموضوع، ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعل ذلك حجَّة لنا لا علينا، وأن ينفعنا بما علَّمنا، وأن يعلِّمنا ما ينفعنا، وأن يزيدنا علمًا، وأن يصلح لنا شأننا كلَّه.

سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلَّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وصلَّى الله وسلَّم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.

الفهرس